أساطير الأولين

والديانات الباطنية



سلامة المصري

أساطير الأولين

والديانات الباطنية

سلامة المصري

"اعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه..
وجهر لا سر تحته.
واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة..
ولا كان عنده سر ولا رمز ولا باطن"

ابن حزم الأندلسي
الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل
جـ 2، صـ 274

"...وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه. ولا يُكِبن أحد عليها وهو خُلْو من علوم المِلة، فقَل أن يَسلم لذلك من معاطبها"

مقدمة ابن خلدون
فصل 31، عن الفلسفة

الأفكار لا تموت؟

سنة 1994 أعلن (ألان مور Alan Moore)، مؤلف القصص المصورة البريطاني الشهير، أنه أصبح ساحرا باطنيا.

كان هذا بعد أن قضى فترة الثمانينيات وهو يعيد تشكيل فن الـ Comic Books، ويرفعه من مجرد "قصص أطفال" إلى مرتبة الأدب الجاد الذي يناقش موضوعات لا تكاد تصلح للأطفال!

على يده - ويد المؤلف الأمريكي فرانك ميلر [1] – ظهر للوجود نوع جديد من الكوميكس لم يعد يناسبه وصف "كوميكس" (والتي تعني فكاهي أو كوميدي). قصص طويلة، معقدة الحبكة، وناضجة، تتكلم - بالتصريح والتلميح – عن علم النفس والاجتماع والسياسة والفلسفة، وفي نفس الوقت أبطالها هم باتمان وسوبرمان والجوكر!

لهذا تم اختراع التصنيف الجديد (روايات مصورة Graphic Novels) لتصدر تحت مظلته أعمال تنافس الروايات النثرية التقليدية، ولا يقل تأثيرها الثقافي عن أعمال فرانك هربرت أو دوجلاس آدمز أو فيليب ك ديك [2].

نجاح ألان مور تلاه طوفان من الإصدارات التي حاولت تقليده، فنسخوا الشكل وفشلوا في مجاراة المحتوى [3].. أما هو فتركهم وسار في طريق جديد استحوذ على اهتمامه: العلاقة بين السحر والفن، وكيف يؤثر عالم الأفكار في عالم الواقع.

بدأ مور مسيرته الأدبية في بريطانيا، لكن شهرته جاءت نتيجة لنشر أعماله بأمريكا [4]. إلا أن الممارسات الرأسمالية الجشعة لدور النشر الأمريكية جعلته يقطع علاقته بهم.. وتحريفهم لمغزى رواياته جعله يجبرهم على حذف اسمه من الأفلام المقتبسة من أعماله [5].

وإلى الآن يرفض مشاهدة أي فيلم منها

[From Hell (2001) من الجحيم - The League of Extraordinary Gentlemen (2003) عصبة السادة الخارقين - V for Vendetta (2006) ثاء ثأر - Watchmen (2009) الحراس]

ويفضل إعطاء نصيبه من الأرباح للرسام الذي شاركه في تأليف الرواية المصورة [6].

==========

[1] Frank Miller ، الذي حوّل الرجل الوطواط إلى الشخصية التراجيدية الصارمة المألوفة حاليا في الكوميكس والأفلام، عن طريق روايتيه The Dark Knight Returns (المنشورة 1986)، و Batman: Year One

[2] بل أن قصة ألان مور المصورة Watchmen، التي لا يمل النقاد من مدحها، لا أكون مبالغا إن قارنتها برواية دوستويفسكي (الجريمة والعقاب)!

[3] كـ Grant Morrison الذي وصلت به المحاكاة لدرجة أن أعلن نفسه "باطنيا Occultist" أيضا، تشبها بـ مور (!!) الذي تجاهله لسنوات ثم وصفه مؤخرا بأنه "علقة طفيلية" Slovobooks, Alan Moore Interview, January 2014

[4] فالكوميكس هي اختراع أمريكي بالأساس.. وتسيطر شركتان على غالبية العناوين المطبوعة، DC و Marvel. الأولى بشخصياتها الشهيرة التي حملت الثقافة الأمريكية لجميع بلاد العالم تقريبا (باتمان، سوبرمان)، والثانية بأبطالها المحببين للأطفال (سبايدرمان، الرجل الأخضر، الرجال إكس)

[5] شركة DC Comics لنشر القصص المصورة تابعة لشركة Warner Brothers WB أهم استوديو إنتاج سينمائي في هوليوود والعالم

[6] عملية إنتاج الكوميكس تنقسم بين (مؤلف Writer) و (رسام Penciler) ثم (تحبير Inking) (تلوين Coloring) (رسم نصوص Lettering)

بعد أن انتهى المنتج السينمائي Joel Silver والأخوان واتشوسكي من سلسلة أفلام الماتريكس (2003) وجهوا جهودهم نحو تنفيذ مشروع قديم، كان حبيس الأدراج لفترة طويلة: تحويل رواية ألان مور المصورة (ثاء.. ثأر V for Vendetta) إلى فيلم [1].

كتب الأخوان السيناريو، واشتركا مع سيلفر في مهمة الإنتاج، وأسند الثلاثة مهمة الإخراج لـ (جيمس ماكتيج James McTeigue)، كأول فيلم يقوم بإخراجه، بعد أن عمل في السابق كمخرج مساعد في ثلاثية الماتريكس. أما دور البطولة فكان من نصيب نفس الممثل الذي قام بدور "العميل سميث" في سلسلة الماتريكس.

أي أنه من الطبيعي النظر لفيلم (فينديتا) كامتداد للماتريكس.. أو أنه ربما كان الماتريكس امتدادا لرواية فينديتا.

ففي حين أن ملحمة الماتريكس هي صراع البطل (نيو Neo) ضد آلات الذكاء الصناعي التي ستتسلط على عقول البشر وأجسادهم في المستقبل بعد حرب نووية مدمرة، نجد أن فينديتا هي صراع البطل (ڤي V) ضد حكومة بريطانية ديكتاتورية ستتسلط على الشعب بعد فوضى حرب عالمية نووية مدمرة.

وحيث أن الآثار الثقافية والمعاني الفلسفية الباطنية للماتريكس مخصص لها فصل قادم مستقل في هذا الكتاب فالمنطقي أن يكون التركيز هنا على (ڤي فور فينديتا).

عندما صدر الفيلم 2006 كان ألان مور قد دخل بالفعل مرحلة مقاطعته لهوليوود، ولا يكاد يدع مقابلة صحافية تمر دون سخرية من تشويه شركات الإنتاج السينمائي لأعماله.

في حالة هذا الفيلم بالذات قد يتعجب المشاهد السطحي من اعتراض المؤلف على النسخة السينمائية.. فالفيلم يقترب كثيرا من الرواية! فأين المشكلة؟؟

الإجابة هي أن النظرة السطحية رأت التشابهات لكن غاب عنها أهم شيء في أي عمل إبداعي فني: التأثير النفسي والعقلي الواقع على المتلقي.. وهدف المؤلف من وراء العمل.

الرواية كانت رد فعل ألان مور على حكومة مارجرت تاتشر في إنجلترا، والتي رآها مقدمة لحكم فاشي يميني محافظ سيضطهد المعارضة ويقضي على الشواذ والليبرالية.

ولأنه يعتنق مذهب الأناركية (الطرف النقيض للفاشية) جعل بطل الرواية أناركيا Anarchist، يسعى لإسقاط الحكومة التسلطية، لكن ليس بهدف أن تحل محلها حكومة عادلة، بل بهدف ألا تحل محلها أي حكومة إطلاقا!

أي إسقاط فكرة الحكم تماما. وهذا هو معنى الأناركية الحرفي في اللغة اليونانية القديمة [2].

وواضح لكل ذي عقل وفطرة سليمة أنه كما أن التسلط هو انحراف وفساد، ف اللا-سلطة هي انحراف وفساد أيضا.

وجود فكرة كهذه في الفيلم كانت ستؤدي لا محالة لنفور عامة الجمهور منه، وأن يتحول من فيلم يدعو للثورة إلى فيلم يدعو للفوضى.

وعندما قرأ ألان مور سيناريو الفيلم وتابع ردود الأفعال اتضح له ما حدث..

صانعو الفيلم ألغوا فكرة الأناركية تماما، ثم ملؤوا الحبكة بتلميحات ضد حزب بوش الجمهوري، الحاكم لأمريكا وقتها.

والمرة الوحيدة العابرة التي وردت فيها كلمة أناركية في الفيلم جاءت على لسان لص يهدد صاحب متجر بسلاحه، مما جعل المشهد كأنه رسالة تدخل في لا-وعي المشاهد وتحفر في عقله الارتباط بين الفوضى والأناركية.

==========

[1] سيلفر اشترى حقوق الرواية في الثمانينيات، أما لاري وأندي واتشوسكي فكانا قد كتبا مسودة أولية للفيلم في التسعينيات، قبل إصدار الماتريكس

[2] Anarchy (اللا-سلطوية) مشتقة من: an (أداة نفي) و archon (بمعنى سيد أو حاكم)

كما أن الماتريكس أحيا أفكارا وجودية عن "الوهم والواقع"، ويسر فهمها لجيل جديد من الشباب، كذلك كان فيلم (V for Vendetta) وسيلة لإحياء أفكار تمردية ونزعات ثورية في نفوس الكثيرين.

أيقونة الفيلم ورمزه الشهير هي قناع بطل الرواية والفيلم، ذو اللون الأبيض والابتسامة المميزة.. قناع (جاي فوكس Guy Fawkes)، الذي تبناه بعض المتظاهرين في حركة "احتلوا وول ستريت" في نيويورك، وفي ميدان التحرير بالقاهرة[1]، وصار شعارا لحركة ال"هاكرز" الإلكترونية Anonymous

الطريف هو أن أغلب هؤلاء متأثرون بالفيلم لا بالرواية.. لأن الثقافة السينمائية (الفرجة) أسهل وأكثر انتشارا من الثقافة الأدبية (القراءة). أي أن الشخصية التي ابتكرها مور لم تصبح رمزا عالميا إلا بعد تحويلها لفيلم يعترض هو عليه ويرفض مشاهدته!

"لا أظن أن الجمهور يريد الذهاب للسينما كي يتلقى عظة. لذا عليك تطوير الأفكار في شكل فيلم، وساعتها يصبح الفيلم كحصان طروادة[2].. تدفعه لداخل القرية في صورة شيء ما، ثم يتحول بعدها لشيء آخر"[3]

جيمس ماكتيج، مخرج فيلم V for Vendetta

فكرة استخدام قناع (جاي فوكس) كرمز لبطل الرواية كانت من اقتراح الرسام (ديفيد لويد David Lloyd) على ألان مور[4]. وفوكس هو شخصية حقيقية هامة في التاريخ الإنجليزي.. تآمر مع آخرين، سنة 1605، لتدمير مبنى البرلمان ببراميل بارود، واغتيال الملك جيمس أثناء حضوره الجلسة الافتتاحية. فشلت الخطة وتم القبض على الجندي فوكس وتعذيبه ثم شنقه في إعدام علني وسط صيحات الجمهور السعيد بنجاة الملك. دافع الخطة كان قتل الملك البروتستانتي، وإعادة الحكم الكاثوليكي لبريطانيا.

==========

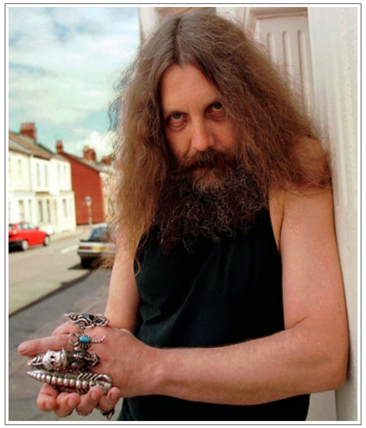
[1]



[2] حصان طروادة Trojan Horse: هدية يتم تقديمها كرمز للسلام وانتهاء القتال، ثم يتضح أنها تخفي داخلها جنودا غزاة يقتلون أهل البلدة ليلا ويفتحون البوابات لباقي الجيش. كـ "وضع السُم في العسل"

[3] The Australian, James McTeigue interview, 29 March 2006

[4] ألان مور Alan Moore



قرر الملك الإنجليزي جعل يوم اكتشاف محاولة اغتياله عيدا، يتذكر فيه الشعب كل خامس من نوفمبر فشل "مؤامرة البارود"، بإشعال ألعاب نارية، وحرق دمية ترتدي قناعا على شكل فوكس [1]. ومن هنا نشأت الأغنية الشعبية:

Remember, remember, the 5th of November

التي أدمجها ألان مور في رواية V for Vendetta، كما أدمج فكرة تدمير مبنى البرلمان للقضاء على الحكومة الفاشية [2].

أي أنه حتى بعد 400 سنة، لا تزال الفكرة والشخصية حية.. يتم بعثها واستخدامها لإيصال رسائل سياسية معاصرة. وربما هذا هو ما كان يعنيه ألان مور حين كتب على لسان بطل الرواية تلك الجملة التي اشتهرت: الأفكار مضادة للرصاص [3].

==========

[1] في مصر، بمحافظة الإسماعيلية على وجه الخصوص، يوجد طقس مشابه لما يفعله الإنجليز بدمية جاي فوكس.

يصنع الشباب دمى وعرائس يطوفون بها في الطرقات في احتفال شعبي، ثم يشعلون بها النار. ويطلق السكان عليها اسم دمى اللنبي.. وهو تحريف لاسم الجنرال ألينبي Allenby، المندوب البريطاني وقت احتلال بريطانيا لمصر.

[2] الفاشية Fascism: نوع من أنظمة الحكم الاستبدادية، تركز السلطة في حزب واحد عسكري، ولا تسمح بوجود معارضة. وتؤمن بـ"الشمولية Totalitarianism"، أي أن الشعب كله عليه الانقياد في كل تفاصيل حياته للتوجه الواحد الذي تحدده الحكومة. مثالها: موسوليني في إيطاليا، ونازية هتلر في ألمانيا

[3]



"كنت تظن أنك ستقتلني؟! داخل هذا الرداء لا يوجد لحم ودم، بل مجرد فكرة. والأفكار مضادة للرصاص"

”البعض يقول لي: لا يمكن أن ينضم الفرد لرتبة السحرة إلا بعد أن يعمل لفترة تحت مظلة سحرة مخضرمين. عن نفسي لا أؤمن بصحة هذا. بل أؤمن أنه في السابع من يناير 1994 تم ضمي وتلقيني [1] على يد شيء أعلى مقاما بكثير من السحرة!“

ألان مور [2]

”لم يتحول السحر للسرية والتخفي إلا عندما بدأ الناس في حرق الساحرات والمشعوذين، في القرن الرابع الميلادي. لما أخذ جماهير المسيحيين يقتلون الغنوصية والهرامسة [3]. بدأ هؤلاء يقولون لبعضهم: إن كنت ساحرا فلا تخبر أحدا، ولا تطلع أحدا على الرؤى التي رأيتها والمعلومات التي جمعتها.

أرى أن هذا "نخبوية" مبالغ فيها. الأفضل هو نشر المعرفة السحرية بكل الوسائل المتاحة. وأنا محظوظ لتوفر عدة وسائل ممتازة أمامي، كالقصص المصورة والأقراص المدمجة وأشياء من هذا النوع“

ألان مور [4]

يصف مور نفسه بأنه ساحر Magician، وثني Pagan، فنان Artist، باطني Occultist، وأناركي Anarchist.

وإن كان قد أوضح أفكاره الأناركية في V for Vendetta فإن باقي الصفات واضحة في اثنين من رواياته المصورة الضخمة الأخرى: From Hell و Promethea.

من الجحيم (500 صفحة مرسومة بالأبيض والأسود) وبروميثيا (700 صفحة ملونة) غارقتان في بحر من الأفكار الباطنية Esoteric بحيث يصعب تلخيص محتواهما هنا.

بشكل عام، رواية (من الجحيم) تصور جرائم جاك السفاح Jack the Ripper التي هزت المجتمع البريطاني الفكتوري [5]، عندما تعرضت عدة فتيات ليل للذبح بطرق بشعة في حي من الأحياء الفقيرة بلندن. الفاعل مجهول إلى الآن [6].. لكن في الرواية المعقدة، كثيرة التفاصيل، يقترح ألان مور أن الجرائم كانت طقسا سحريا باطنيا، قام به الطبيب الخاص للملكة، غرضه تشكيل القرن العشرين قبل أن يبدأ، وضمان السيطرة الروحية للذكورة على الأنوثة!

علاقة مور بالمرأة، في حياته وأدبه، تحتاج دراسة منفصلة، ليس هذا الكتاب مكانها المناسب. فهو مثلا من عاش لفترة في علاقة ثلاثية بمنزله، مع زوجته وعشيقتها، قبل أن تنفصلا عنه. وهو أيضا من سعى لتقديم شخصيات نسوية كبطلات لرواياته، مثل Halo Jones و Promethea، ويخصص مساحة كبيرة لمناصرة الـ LGBT [7] .. ومع ذلك فرواياته مليئة بمشاهد الاغتصاب.

أما رواية بروميثيا [8]، فتحولت في أجزائها الأخيرة من قصة عن بطلة خارقة تتواصل مع عالم الفانتازيا والخيال، إلى شبه درس باطني مصور، يجذب القراء لعالم السحر والعقائد الهرمسية القديمة والقبالاه الصوفية اليهودية.

==========

[1] Initiated

[2] ، [4] Arthur Magazine No. 4, May 2003

[3] Gnostics & Hermetic scholars

[5] أيام الملكة فكتوريا

[6] كلمة ”جاك السفاح“ اخترعتها الصحافة وقتها

[7] Lesbians, Gays, BiSexuals, TransGenders الشواذ والسحاقيات والمخنثون

[8] الصيغة المؤنثة لاسم بروميثيوس

معلم ألان مور الذي أدخله عالم كتابة الكوميكس وعالم الباطنية هو (ستيف مور[1] Steve Moore)، مؤلف الكوميكس الأقل شهرة من ألان، والذي كان يميل في عقائده الباطنية لـ "ربة القمر" Selene.. في حين يميل ألان مور، كما قال مرارا، للثعبان جليكون Glycon.

تعاون الاثنان على تأليف ورسم كتاب يشرح طقوس السحر بأسلوب طريف وسهل[2]، لكن ستيف عاجلته المنية، مما أخر صدور الكتاب، خصوصا مع انشغال ألان بتأليف رواية نثرية، يقال أنها تصل لنصف مليون كلمة، عنوانها "أورشليم[3] Jerusalem".

مع بداية رحلة ألان مور في دنيا السحر والباطنية نصحه ستيف أن يتبع "إلها" من الآلهة الوثنية القديمة، كي يوجه إليه أعماله الطقسية ويكون محور تأملاته[4]. يقول مور أنه لا يهم طبيعة الإله ولا الصورة التي تجسد فيها ولا إذا كان حقيقيا أم لا.. بل المهم عنده هو "فكرة الإله" ذاتها[5]. ولهذا اختار "إلها" على هواه: الثعبان جليكون الذي عبده بعض الناس أيام الرومان، في القرن الثاني الميلادي.. والذي يعلم مور يقينا أنه كان مجرد دمية يستخدمها رجل يدعى ألكسندر في عملية نصب على السذج!

تاريخيا، وقف ألكسندر في السوق يوما ثم أعلن أن إله الطب الإغريقي (أسكليبيوس Asclepius)، الذي رمزه المعروف هو أفعى ملتفة على عصا ⚕ ، سيتجسد على الأرض. ثم أخرج للناس بيضة وكسرها فخرج منها ثعبان صغير وليد، أعلن الرجل أنه هو التجسد المقصود، وأن اسمه جليكون، وأنه هو المتحدث الرسمي باسمه.

بعد أيام عاد مرة أخرى ومعه أفعى ضخمة، طويلة الشعر، ولها فم متكلم، وقال أنها نمت فجأة لهذا الحجم، وأن جليكون قادر على شفاء العقم!

تهافت عليه البعض، وقدموا القرابين. وانتشرت الديانة إلى حد ما، لدرجة أن القائد الروماني للمنطقة تزوج من ابنة ألكسندر، وتم صك عملات عليها صورة جليكون.

ظلت الديانة موجودة لعشرات السنين، حتى بعد موت مخترعها، ثم نسيها الناس.

في ستينيات القرن العشرين عثر على تمثال لجليكون بموقع أثري برومانيا[6].

يقول ألان مور أنه رأى جليكون وتكلم معه خلال إحدى جلساته الروحية. وتفسيره لهذا هو أنه رآه بـ"عين العقل" والخيال، لا بعين البصر، حيث أنه يعبد "فكرة جليكون" لا الثعبان نفسه. بالإضافة طبعا إلى أن الجلسة كانت تحت تأثير فطر Mushroom مسبب للهلوسة، حيث أن تناول المخدرات "يجعل العقل أكثر عرضة للتواصل مع مخلوقات عالم الأفكار"، كما يقول مور!

==========

[1] تشابه أسماء

[2] The Moon and Serpent Bumper Book of Magic

[3] يصفها بأنها أطول من "التوراة والإنجيل The Bible" وتقدم "سيناريو أفضل عن الحياة الآخرة" Aeon Magazine, October 2014

[4] The Art of Magic, PaganDawnMag.org, February 2016

[5] Arthur Magazine No. 4, May 2003

[6]



عن تحوله من الإلحاد إلى الباطنية، أخبر مور صحيفة الجارديان في لقاء أجرته معه، أن جملة واحدة كتبها على لسان إحدى شخصيات رواية (من الجحيم) غيرت مجرى حياته.
"المكان الوحيد الذي لا يمكن أن يجادل أحد في حقيقة أن الآلهة توجد فيه فعلا، هو العقل الإنساني".. بعد أن كتب هذا تأمله، ثم رأى أنها جملة سليمة، تتعارض مع عقيدته الإلحادية السابقة. فتحول إلى السحر والباطنية، لأنها عقائد تسمح بوجود آلهة كثيرة في نفس الوقت، تعيش في "عالم الأفكار".. أو ما يسميه هو Idea-Space.

"عملية ابتكار كائن غيبي، ما وراء طبيعي، هي الكائن الغيبي الما وراء طبيعي. فكرة الإله هي الإله. تمثال الإله هو الإله، لكن بصورة أقرب وفي متناول اليد"
ألان مور [2]

"كل ديانة هي لغة من اللغات، أما السحر فهو علم اللغات. فلا يمكن أن يقول مثلا أن الفرنسية لغة حقيقية لكن الروسية ليست حقيقية. ما دمت ساحرا فعليك أن تقبل كل الديانات وتعاملها كلغات حقيقية"[3]

"السحر مبني على الغنوص، العرفان، المعرفة المباشرة... كما في الديانات الباطنية القديمة التي كان لكل فرد فيها علاقته الخاصة مع الإله، الذي كانوا يؤمنون أنه داخلهم"[4]

"اكتشفت أني قضيت جزءا من الأمسية أتكلم مع كائن يخبرني أنه شيطان ذُكر اسمه لأول مرة في كتاب من كتب الأبوكريفا (سِفر طوبيت). هذه خبرات غنوصية"[5]
ألان مور

في حوار إذاعي [6]، وصف مور بالتفصيل تجربته مع الشيطان أشموداي..
في منزله، بعد جلسة روحية مع أصدقائه لم تؤدِ لنتيجة، صعد غاضبا لغرفته. شعر بموجة من المشاعر السلبية وكره الذات غير معتادة من شخصيته، فعزاها لـ"وجود شيطاني". في هذه اللحظة رأى بعين عقله أضواء خضراء وحمراء فوق سريره. أدخل يده فيها وصارعها بقوة فاختفت!.. وهنا دخلت زوجته [7] فقص عليها ما حدث، وقال أنه يشعر أن الكائن لا يزال موجودا بصورة ما، لكن مقاومة مور أضعفته، وأنه سيحاول التواصل معه.
أغمض عينيه وقال: إنك كائن غامض وعجيب! ما أنت بالضبط؟
وهنا سمع في عقله صوتا يقول: أنا أحد الأدواق التسعة. خمن أيهم أنا؟
قال مور: هل اسمك يبدأ بحرف الباء؟ هل أنت بليعال [8]؟.. فرأى على الفور صورة كائن على شكل ضفدع، من الألماس، وله سبع عيون، لكن شعورا طاغيا أعلمه أن هذه الصورة تخص الاسم الذي قاله لا الكائن الموجود بالغرفة.
فقال: هل أنت بعلزبوب [9]؟.. فرأى صورة حائط من لحم الخنزير يمتد في جميع الاتجاهات ومليء بعيون تشع كراهية، وشعر نفس الشعور السابق.

==========

[1] The Guardian, 2 February 2002
[2] The Believer Magazine, June 2013
[3] ، [4] ، [5] Arthur Magazine No. 4, May 2003
[6] The Night Before, Radio interview, 2007
[7] زوجته الثانية الحالية، ميلندا
[8] Belial בליעל
[9] سيد الذباب Lord of the Flies

فقال مور: هل أنت أشموداي؟[1].. وهنا أجابه الكائن بالإيجاب، وظهر بصورة عناكب متشابكة، تكرار لنفس العنكبوت لكن بأحجام مختلفة، وتحول تدريجيا لسحالي ثم تعود لأصلها. وفي الخلفية ريش طاووس مرسومة عليه عيون. والعناكب تحرك بصورة غير طبيعية يصعب وصفها، من الداخل للخارج ومن البعيد للقريب، وكأنها في بعد آخر مختلف عن عالمنا ثلاثي الأبعاد.[2]
أخذ يتحاور معه لحوالي نصف ساعة، وينقل الإجابات لزوجته الجالسة جواره لا ترى ما يراه. وقال أنه كون انطباعا عن الكائن أنه ظريف ومتباهي وبارع في الرياضيات.

هذه التجربة، التي تمت تحت تأثير عقاقير الهلوسة، جعلت مور يهتم بموضوع فيزيائي ورياضي غريب، وهو "البعد الرابع"[3].
الأبعاد المعروفة ثلاثة: الطول والعرض والارتفاع.. وبها يمكن وصف الأشياء المجسمة.
لكن هل يمكن أن يكون هناك بعد رابع، مكاني، لا ندركه؟
الفيزياء تعامل الزمن نفسه كبعد رابع، لكن ما اهتم به مور هو هذا البعد كمكان، لا كزمان.
الفكرة تبدأ من مثال بسيط: نعلم أن النقطة بلا أبعاد، وأن الخط بعد واحد، والشكل الهندسي المربع أو المثلث يوجد في عالم ثنائي الأبعاد. أما المكعب أو الهرم فهو جسم يوجد في عالم ثلاثي الأبعاد. فلو رسمت مربعا على ورقة وداخله دائرة فإن هذه الدائرة ستكون محصورة ومحبوسة داخل المربع، وهي تراه محيطا بها من "جميع الجهات"، لأن عالمهم هو ثنائي الأبعاد. كما لو أنك حبست شخصا في زنزانة مغلقة، تحيط به الجدران والسقف والأرضية من جميع الجهات، ولا يمكن للناس خارج الزنزانة رؤيته.
أما أنت فتنظر للدائرة من أعلى، من بعد ثالث، ويمكنك بسهولة أن ترى الدائرة والمربع وما بداخله.
فلو هناك كائنات في بعد مكاني رابع، هل يمكنها أن ترانا ونحن لا نراها؟ وهل يمكنها رؤية ما بداخل الصناديق المغلقة في عالمنا دون الحاجة لفتحها؟
يؤمن مور أن مثل هذه الكائنات لو أرادت إظهار نفسها لنا لظهرت بالشكل الغريب الذي رآه.
وأنه كما أن المربع والدائرة لا يمكنهما أن يستوعبا فكرة وجود ثلاثة أبعاد، كذلك يصعب على الكائنات المجسمة ثلاثية الأبعاد أن تستوعب فكرة وجود بعد رابع.

==========

[1] أزموديوس Asmodeus

[2] رسم ألان مور



[3] The 4th Dimension

عند ألان مور، الفن Art والسحر Magic شيء واحد [1].. القدرة على التأثير في الوعي وتوجيه الأفكار وتجسيدها.

بعض الكتّاب يحتار عندما يسأله جمهوره: من أين تأتي بأفكارك؟. والسبب هو أن تحديد مصادر أفكارنا وقناعاتنا وآرائنا هو أمر صعب جدا. فالإنسان في حالة اكتساب دائم للأفكار من البيئة المحيطة ومما يتعرض له يوميا. فيعلق بعضها في اللا-وعي ويؤثر في نظرته للعالم من حوله وفي قناعاته دون أن يدرك!

سكان دول العالم المتأثرون بالأفلام والمسلسلات الأمريكية بدؤوا يخلطون بين واقعهم وبين ما يرونه على الشاشات.. فيحاولون أحيانا، عند الطوارئ، الاتصال بـ 911 (رقم النجدة بأمريكا) مع أنهم يعيشون في بلد له رقم نجدة مختلف!

وبعض شباب وفتيات العرب يظنون أن قضايا القتل في محاكمهم المحلية تعتمد على نظام المحلفين Jurors كما في أمريكا.. أو أن المأذون، بعد عقد القران، سيطلب من الزوج أن يقبّل الزوجة، كما يحدث في أفلام هوليوود الرومانسية! [2]

صعب أن نحسب بدقة، على سبيل المثال، تأثير فيلم V for Vendetta الصادر 2006 على توجهات بعض شباب المتظاهرين في 2011، لأن الأفكار ليست شيئا محسوسا يمكن قياسه في معمل أو وزن قيمته. لكن في نفس الوقت لا يمكن إنكار التأثير.

كل فيلم أو رواية هي فكرة، تنتشر أحيانا بين ملايين المشاهدين والقراء، وتصبح خبرة مشتركة بينهم.. وإن كانت قوية ومبهرة فسيكون تأثيرها الباقي في أذهانهم قويا بالتبعية. ويعتبر هذا نوعا من البروباجاندا.

أول كتاب علمي متخصص في مجال العلاقات العامة، وتحسين صورة الشركات والمؤسسات، وطرق إقناع الزبون بشراء بضائع ومنتجات قد لا يكون محتاجا لها بالفعل، اسمه Propaganda، وقام بتأليفه Edward Bernays.. الرجل الذي يذكره التاريخ كصانع الحملة الإعلانية الضخمة التي أقنعت النساء في أمريكا بتدخين السجائر [3]!

طلبت منه شركات السجائر إيجاد طريقة لزيادة عدد المدخنين، وإقناع المرأة أن التدخين مقبول اجتماعيا، كي تزداد المبيعات التي كانت حتى ذلك الوقت مقصورة على الرجال. استعان بالدعاية الفنية، وأجر فتيات للمشي في الطرقات ذهابا وإيابا وبأيديهن السجائر المشتعلة، لتعويد الناس على المسألة اجتماعيا. واشتركت ممثلات هوليوود في الحملة بنشر صورهن بالسجائر في المجلات.

ثورة اجتماعية نجحت، وتحولت الفكرة إلى واقع يومي معاش.

مثال آخر: الجيش الأمريكي ينتج ألعاب "فيديو جيم" [4] غرضها تحبيب المراهقين في العمليات الحربية وتدريبهم على التصويب، وتجميل المسألة وربطها بـ "المغامرة والإثارة"، بهدف اجتذاب الشباب للتطوع للخدمة العسكرية [5].

==========

[1] Aeon Magazine, October 2014

[2] وهي ظاهرة يسميها موقع TvTropes.org باسم Eagleland Osmosis ، أي أسموزية بلاد النسر.. عندما تنضح ثقافة أمريكا (والتي رمزها الرسمي هو طائر النسر الأمريكي) على توقعات الشعوب الأخرى المتفرجة على إنتاج هوليوود. والموقع متخصص في تحليل وتصنيف "المجازات والحيل الدرامية المتكررة Tropes" التي يستخدمها مؤلفو الأعمال الفنية

[3] وهو ابن أخت سيجموند شلومو فرويد

[4] مثل لعبة America's Army

[5] الجيش في أمريكا قائم على التطوع لا التجنيد الإجباري

قدرة الفنون والأفكار على تغيير الواقع لا مجال لإنكارها. لكن ليس بالصورة الساذجة التي تظنها مراهقات "قانون الجذب"[1] الباطني، القائلات أنك لو وقفت أمام المرآة وأقنعت نفسك بأنك من الأثرياء فستنجذب إليك الثروة تلقائيا.

تنجح الأفكار في تغيير الواقع عندما تنزرع في عقل الإنسان أولا، ثم تقوم أفعال واختيارات وتوجهات هذا الإنسان بتغيير الواقع حوله، بالتدريج، وحسب قدراته.

مثلا، عندما تولد فتاة اليوم في بيئة عربية مشبعة برسالة إعلامية مستمرة تخبرها أن نحافة الأرداف معيار للجمال، فطبيعي أن تحاول هذه الفتاة وقريناتها تغيير أجسادهن بحيث تتناسب مع هذا المعيار. على الرغم من أن العرب كانوا يرون أن من جمال المرأة ضخامة العجيزة والأرداف، وانثناء جوانب البطن [2].

وكان بعض النساء يستخدمن ما يسمى الأُضخومة أو الحشِية: "الثوب الذي تشده المرأة على عجيزتها تحت إزارها، تضخم به عجيزتها"[3]

فالأفكار التي يبثها الإعلام نجحت في تغيير الذوق العام.

مثال آخر: كان العرف الاجتماعي والشرعي عند المسلمين هو منع الإماء من تغطية وجوههن، لأن النقاب من علامات الحرائر. لكن طوفان الأفكار الوارد علينا مع الاحتلال الغربي لبلادنا حرّف هذا المفهوم لنقيضه، بحيث قد يقال اليوم للرجل الذي ينصح زوجته بتغطية الوجه أمام الأجانب أنه يعاملها كـ "أمة"، ويمنعها من "الحرية".

بعض الفنون اليوم لها مفعول السحر. يجلس المتفرج، طوعا، لمدة ساعتين، في قاعة مظلمة معزولة عن العالم الخارجي، يتلقى جرعة مكثفة من الإيهام، ويغرق في متابعة حياة وحوارات شخصيات مخترعة، مرسومة أمامه بأكبر من الحجم الطبيعي على شاشة عملاقة، وتحيط به الأصوات من الأمام والخلف وعلى الجانبين ليندمج تماما في الأحداث التي يتابعها. والموسيقى التصويرية تداعب مشاعره وتحركها حسبما يريد المخرج، فأحيانا تثير في نفسه الحزن وأحيانا الفرح أو الترقب أو الحماسة. وربما وضعوا على عينيه منظارا يوهمه أن ما يراه ليس شاشة مسطحة بل أشخاصا حقيقيين مجسمين لهم ثلاثة أبعاد.

سحر السينما.. يعرض أمام المتفرج جمادات، لكن.. "يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى"[4].

ووسط هذا الهجوم متعدد الجبهات تضعف مقاومة الإنسان، ويصبح أكثر عرضة لتلقي أفكار و "رسالة الفيلم" التي يهدف إليها صانعوه.

فالفن إما له رسالة أو يكون عبثا. والرسالة تكون أحيانا ظاهرة وأحيانا "في بطن الشاعر".. لكنها في الحالتين تصل لوعي المتفرج ومداركه، سواء أدرك هذا ووعاه أم لا! فيختلط الواقع بالوهم، والحقيقة بالخيال.

أو كما قيل:

"هاري: هل هذا حقيقي؟ أم أنه يحدث داخل رأسي؟

دمبلدور: بالطبع يحدث داخل رأسك يا هاري. لكن لماذا، بحق السماء، ينبغي أن يعني هذا أنه ليس حقيقيا؟"

هاري بوتر ومقدسات الموت [5]

==========

[1] Law of Attraction

[2] وتسمى "العُكَن"

[3] لسان العرب لـ ابن منظور، ج 11 ص 503، نسخة المكتبة الشاملة الإلكترونية

[4] طه 66

[5] Harry Potter and the Deathly Hallows